

تمظهرات الاتجاه الإنساني في النقد الجزائري

الدكتور: محمد بلعباسي

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف-الجزائر

ملخص:

تصح الإشارة لمن يسمح الساحة النقدية الجزائرية أن يتأكد بأن كثيرا من النقاد الجزائريين قد تبنا الاتجاه الواقعي الإنساني إن عن معرفة دقيقة بمعالم هذا المنهج أو مجرد أنهم تبنا الظواهر الإنسانية من منطلق التعبير عن مشاعر الإنسان، حيث تلتقي المشاعر على قضية واحدة عبر العصور حيث ساد الجمود و استولى المستعمر الطاغوي على مقاليد الشعوب المستضعفة.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري؛ الاتجاه الإنساني؛ الأدب

و لعلك واحد "أبا القاسم سعد الله" يفرد مقعدا سنة 1960 ليتحدث عن القضايا العربية في الأدب الجزائري، و لو استطرد لكتب عن القضايا الإنسانية عموما في الأدب و النقد الجزائريين.¹

و قد جعل "محمد مصايف" قضية الأدب والنقد من المواقف الأدبية المدروسة المرتبطة بالحضارة، وعلى الناقد أن يكون متسلحا بأدوات الفن، موضوعيا، هادفا في كتاباته لكي يقدم أبعادا جديدة للحياة و المجتمع، عملا على إثراء الأدب والارتفاع به إلى مستويات تجعله من الآثار الوطنية الإنسانية الخالدة.

نجد الناقد "محمد مصايف" يجعل الاهتمام بالقضايا الإنسانية لا تتطلب أن يكون الأديب ماركسيا حتى يؤمن بها، و كأني به يؤكد على أن الاتصال بقضايا المجتمع كفيلا بأن يعطي حرارة للأعمال الأدبية، وبالتالي يكتب لها النجاح، وهذا ليس وقفا على الناقد الماركسي، أو الواقعي الإنساني برأي "مصايف"، بل يكفي أن يكون إنساني العقل و العاطفة و القلب، ما يجعله يحس بآلام الآخرين ويتمنى لهم ما يتمناه لنفسه من حياة كريمة.

وقد جعل "مصايف" فقدان الإنسانية يعني فقدان الاتصال بالآخرين، ما يحول له أن يكون مدافعا عن قضايا المواطنين و الإنسان عموما، و كل أدب لا يهتم بقضايا النفس الإنسانية هو قتل للوقت و تزجية للفراغ.²

و يشترط محمد مصايف في الأدب الرفيع الشجاعة الأدبية في التصريح باتجاهه العقائدي الذي يعني بالضرورة اتخاذ موقف معبر عن وجهة نظره تجاه نفسه و تجاه مشاكل المجتمع، و ألا يكون بينهما أدنى تناقض، و هو الشرط الأساس في الأدب الرفيع، و كل ذلك مشروط بالصدق الذي لا تسمو المواقف إلا به لتتبوأ درجة الأدب الإنساني الرفيع.³

بناءً على هذا نستطيع أن نقول إن ما جاء عن "مصايف" هو من صميم معالم الاتجاه الإنساني الذي يرنو إلى الظواهر الإنسانية و يؤكد على هوم المجتمع أي كان، بل و القارئ لما جاء عن هذا الناقد، و من أي بلد مستضعف يحس أنه يعنيه بكتاباته، إلا أن الملحوظة التي ينبغي ألا تعزب عنا هي أن "مصايف" لم يشر لا من قريب و لا من بعيد إلى مصطلح "الاتجاه الإنساني" جاعلا ذلك كله ضمن الاتجاه الواقعي.

كما اهتم "محمد بوشحيط" بالشخصية الإنسانية الكاملة، و إعادة بنائها وتحريرها من التشويه و القلق و تنمية وعيها، و كل ذلك يتطلب إدراكا كاملا للموقف الإنساني بقوله: "في هذا السياق تكون مهمة الفنان المبدع، هي إعادة بناء الشخصية الإنسانية الكاملة و تحريرها من التشويه و القلق التي تخضع لهما و ذلك بالمساهمة في تنمية وعي الإنسان الواعي لذاته، المدرك لموقفه الإنساني، و هذا لا يتم إلا بالكشف عن الواقع الاجتماعي المعاش، و عدم التستر عليه"⁴.

و تؤكد هذه الحقيقة و بأكثر توسيعا، ينتهي "بوشحيط" إلى أن الحركة الأدبية الجزائرية استطاعت أن تعبر عن هموم الإنسان الجزائري ليجعل من هذه الحركة سبيلية لحرب التحرير المجيدة من خلال "محمد ديب، مولود فرعون، مالك حداد، و كاتب ياسين" على نحو ما جاء قوله: "وبهذه الخصوص، نستدرك، فنؤكد على أن الحركة الأدبية الجزائرية في مجملها، استطاعت أن تعبر عن هموم الإنسان الجزائري بعد الاستقلال، وبالتالي ماتزال الوريث الشرعي للعملية الرائعة التي جسدها أثناء حرب التحرير المجيدة: ديب، فرعون، حداد، ياسين"⁵.

و لا نظن إلا جازمين أن هموم الإنسان الجزائري هي هموم الإنسان في العالم، فما يعانيه هذا يعانيه ذاك، و ما يصبو إليه هذا يصبو إليه ذاك.

و ها هو ذا محمد بوشحيط يردف على ما قال، و كأني به يستدرك وينتبه إلى "الإنسان الجزائري" لوسع موقفه جاعلا إياه ينسحب على الإنسان و آلامه في كل بقاع الأرض، و ذلك بالذود ضد الظلم أيًا كان مصدره، و الدفاع عن نضالات الإنسان في حروبه المستمرة ضد مغتصبي حقوق هذا الإنسان الذي ينشد عالما مترعا بالحرية، "فالاتزام الفعلي في الأدب، و جميع أنواع الأدب الأخرى، هو تعبير عن هموم الإنسان و آلامه، و ذلك بالدفاع و بلا هوادة ضد الظلم، أيًا كان مصدره لأن مهمة الثقافة الفنية و الوعي الجمالي، هو التعبير عن نضال الإنسان في صراعه مع عالم الضرورة و نشدانه عالم الحرية والاختيار"⁶.

وهي ضرورات ترتبط بالحياة، ولا يكاد يختلف فيها العربي ولا العجمي، و لكم دفع في سبيل تحقيقها الأدباء و المناضلون أغلى الأثمان، و نحن أصحاب الفكر في التاريخ الإنساني لا تحتاج إلى توضيح و لعل محنة "سقراط" في نضالاته من أجل الإنسان من خلال مقولته الشهيرة: "أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك" و التي انتهت بموقف شهير أيضا هو أن الدفاع عن الكلمة يكون بدم الشهادة، و لمن شاء أن يطلع على بعض الشذرات من هذه المواقف الإنسانية التي ما كانت إلا دفاعا عن الحق و الحرية و الاختيار أن يعود إلى كتاب "محمد بوشحيط" "الكتابة لحظة وعي" ضمن مقاله "الكتابة لحظة وعي... أم وظيفة أيديولوجية".

نأتي الآن إلى "عبد الله الركيبي" و هو يتحدث عن الكتابة الجزائرية، و هل استطاعت أن تشكل مدرسة قائمة بذاتها، لها خصائصها و مميزاتها، و هل تختلف عما في الأدب العربي أو الإنساني، و تتميز عنهما بخصائص معينة؟ حيث يبدي رأيه مستصعبا أن يجد مجموعة من الأدباء و القصاصيين و الشعراء و قد اعتنقوا مذهبا معينا، و أسسوا مدرسة خاصة بقوله: "و الحقيقة إنه من الصعب أن نجد مجموعة من الأدباء - شعراء و قصاصيين - عندنا اعتنقوا مذهبا أدبيا، و التفوا حول شعارات أدبية جمالية أو فكرية معينة فوضعوا لهذه المدرسة قواعد و أسسا محددة و عبروا عنها في إنتاجهم

و أدبهم و أصدروا بياناً أو لم يصدروه يوضح قناعاتهم الخاصة تجاه جملة من المسائل الأدبية التي تتصل بالشكل و المضمون، شأن دعاة المدرسة أدبية كانت أم غيرها"⁷.

و يجيب "عبد الله الركيبي" عن جملة من الأسئلة راثياً بأن الأدب الجزائري و إن كان يتميز بملامح خاصة ترتبط بالظروف التي عرفت الجزائر دون غيرها من الأقطار إلا أنه يتداخل مع الآداب العربية و الأجنبية التي عبرت بواسطة مجموعة من الأشكال و الأدوات الفنية عن هموم الإنسان وآلامه وأحلامه على حد قوله: " الأمر نفسه ينسحب على الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، فقد سار في الخط الذي سار فيه الأدب العربي [...] فظهور القصة القصيرة و المسرحية، و المقال الأدبي و الرواية، هذه الأشكال الأدبية هي الأشكال التي ظهرت في الأدب العربي الحديث و المعاصر، و قد تأثر هو نفسه فيها بالآداب الأجنبية التي سبقتها إلى التعبير بواسطتها عن هموم الإنسان وآلامه و أحلامه، و نشأت لحاجة ملحة في نفس الأديب و المجتمع معاً"⁸.

و دون أن يحدد منهجاً أو مذهباً أو اتجاهها بعينه يؤكد على تأثر الأدب الجزائري بغيره من الآداب الأخرى باعتبارها روافد مغذية و مثرية للأدب الجزائري و العربي و الإنساني عموماً.

تلك القيم التي تمنح صفة الخلود لهذا الأدب عبر تعبيره عن أشواق الإنسان و إيمانه بالتقدم و العدالة الاجتماعية، نأياً بنفسه عن سرداب الإقليمية كما عبر عن ذلك بقوله: "لأنه عبّر عن أشواق الإنسان و إيمانه بالتقدم والعدل لا النظرة التي تحصره في حجرة مظلمة، و تغلق عليه النوافذ كلها فتجف بناييعه و يعيش في "سرداب الإقليمية" الضيقة، بينما المفروض أن نبحت فيما يساعده على أن تتسع آفاقه و يشع بنوره على الإنسان في هذه الأرض، و في العالم كله"⁹.

و خلاصة القول إن "عبد الله الركيبي" يضرب على أوتار الإنسان والإنسانية دون أن يربطها باتجاه أو مذهب أو تيار، شأنه شأن أغلب النقاد الجزائريين، و يفصح عن هذا في بداية مقاله*¹⁰.

من المهم جداً أن نعرض لموقف "شايف عكاشة" الذي يبدو أنه كان واضحاً في تقديمه للمنهج الإنساني كمنهج واضح المعالم يختلف عن المناهج الأخرى و إن تقاطع معها في الكثير من المناحي حيث يؤكد أن الظاهرة الإنسانية لا يكاد يخلو منها أي منهج بدءاً بالوجودية التي تدعو إلى تحقيق إنسانية الإنسان انطلاقاً من الفرد بلوغاً الجماعة، مروراً بالرومانسية التي تؤكد على الإنسانية المطلقة، و بهذا فهي أقرب إلى المثالية وصولاً إلى الواقعية حيث بفضلها بدأ يتقلص المفهوم المطلق للإنسانية ليبحت له عن بذور مرتبطة بالواقع انتهاءً بحركة الإنسانيين الجدد الذين دعوا إلى ضرورة استقلال الإنسان عن الطبيعة*¹¹.

كما يؤكد "شايف عكاشة" على صعوبة حصر الإنسانية في مذهب أو اتجاه معين، على الرغم من أنها تحمل السمات المشتركة التي تجعلها تدخل في نطاق معظم المذاهب الفنية، و إن كانت تختلف من عصر لعصر، و من أيديولوجية لأخرى باختلاف الزمان و المكان على حد قوله: " و إذا تجاوزنا صعوبة إمكان حصر دائرة الإنسانية في مذهب فني معين لسهولة تملصها و تعدد مفاهيمها إلى محاولة تحديد المنهج النقدي الذي تبناها، فإننا سنواجهه — بلا

ريب - مجموعة طائلة من المناهج النقدية التي استلهمت مبادئ الإنسانية، بحيث لا نجانب الصواب إذا قلنا إنه لا يخلو منها منهج واحد من المناهج النقدية المعاصرة¹².

ودعما لهذا القول يمكننا أن نقول بأن كل المناهج النقدية والمذاهب الفنية تتغنى بالإنسانية، وتحاول أن تستغلها لتثبت دورها، و تدعم حضورها لكي تعرف انتشارا أكثر، بله قد تجد مناهج غير مرتبطة أصلا بالإنسان، بل والتي شَيَّأت الإنسان لتحتل لنفسها مبررات لتضرب على وتر الإنسانية و إن كانت منه براءً.

و إذا أبنا إلى "شايف عكاشة" و هو يتعرض لجملة من النقد و المتشبعين بمبادئ الواقعية الإنسانية فإننا واجدوه يستصعب حصرهم إلا أنه يقتصر في حديثه على أشهر النقاد منهم: "عبد القادر القط"، "شكري عياد"، "عبد الله الركبي"، "محمد مصايف"، "عباس الجارري"، "عبد العزيز المقالح"، إلا أنه بدورنا نركز على تتبع دراسته للنقاد الجزائريين "عبد الله الركبي" و "محمد مصايف".

و بهذا نجد "شايف عكاشة" لا يركز على ناقد بذاته، بل ينطلق من رؤية شمولية للنقاد الجزائريين و العرب عموما دون محاولة منه التركيز على ناقد بعينه، وما يختلف أو يتفق فيه مع الآخرين و دون أن ينصص لأقوالهم.

ودليلنا في ذلك قوله: "وينطلق هؤلاء النقاد هنا - شأنهم شأن أصحاب المنهج الواقعي الاشتراكي من أن الواقع الإنساني يتكون من ظاهر وباطن، وأن على الأديب أن لا يكتفي في تصويره لما يظهر من الواقع. و بناءً على هذا ينبغي له أن يجمع في تصويره بين ما يظهر في الواقع و ما يختفي منه".¹³

و قد عرج "شايف عكاشة" على قضية الشكل و المضمون و كيف اهتمت المناهج على اختلافها بهذه القضية، حيث اعتبرها مركز اختلاف بين المناهج النقدية، فالمنهج الواقعي الاجتماعي يؤمن "برأيه" بتبعية الشكل و المضمون، في حين ينطلق المنهجان الواقعيان "الاشتراكي و الإنساني" بتعالقهما و تفاعلتهما معا، دافعين بذلك مقولة "تأثير البنية التحتية على البنية الفوقية" انطلاقا من كون مجتمعات متخلفة ماديا بإمكانها أن تنتج أدبا راقيا و خالدا.

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن "شايف عكاشة" قد تنبه إلى مكانة الأسلوب في الإبداع الأدبي في إطار المنهج الإنساني، حيث يرى أن أصحاب المنهج الإنساني على خلاف المنهج الواقعي الاجتماعي لم يطالبوا باستعمال العامة في الكتابة الأدبية، و تركوا الحرية كاملة للأديب في اختيار الأساليب الممكنة والمتاحة مخافة وقوع صراع بين الفصحى و العامة، و أن استعمال هذه أو تلك ينبع حتما من متطلبات الموضوعات في حد ذاتها على حد قوله: " نلاحظ أيضا أن أصحاب هذا المنهج لم يتبنوا - شأن أصحاب المنهج الواقعي الاجتماعي - دعوة المطالبة باستعمال العامة في الإبداعات الأدبية، كما أنهم لم يمانعوا من استعمالها، بل هم يرون أن الخطأ تناول هذه القضية، كأنها حرب بين الفصحى والعامة، لأنها في حقيقتها ظاهرة فنية في المقام الأول. و قد تركوا إمكانية الاختيار بين استعمال العامة أو عدم استعمالها لمتطلبات الإبداع الأدبي نفسه".¹⁴

وما يسترعي الاهتمام أيضا رسالة و مسؤولية الأديب تجاه المتلقي والجمهور عموما حيث يؤكد "شايف عكاشة" انطلاقا من المذهب الاجتماعي ومقولات أصحاب هذا المذهب أن رسالة الأديب أكبر من مسؤولية هؤلاء، لأن مسؤوليته متعلقة بوعي المتلقي و كسب ثقته، و هما مرتبطان بإقناع الأديب من خلال الكلمة المعبرة الصادقة "فرسالة

الأديب عند أصحاب هذا المنهج لا تقل أهمية عن رسالة المسؤولين أو المسيرين، و ربما كانت مسؤولية الأديب أكبر من هؤلاء ، باعتبارهم يحتاجون إلى القيام بواجبهم إلى وعي و ثقة جماهير، وأن هذا الوعي، وهذه الثقة، إنما هي نتيجة للإقناع الذي هو أثر من آثار الكلمة الفنية الصادقة¹⁵.

وهذه الرسالة تنبني على طبيعة الإبداع الأدبي الذي ينحو إلى استشراف مغالقات الوجود تأسيسا على العقل والعاطفة الذين يبرران سمو ورقي الإبداع الأدبي.

وخلاصة القول فإن "شايف عكاشة" و هو يتحدث باستفاضة عن المنهج الإنساني، أكد على نقاط يمكن أن نجملها فيما يلي:

- أ- صعوبة تحديد الإنسانية و حصرها في زمان و مكان معينين.
- ب- حضور الإنسانية كظاهرة في أنساق أغلب المناهج النقدية.
- ج- إجماع النقاد الذين تبنا الرؤية الإنسانية في تحديدهم لماهية الثقافة على أنها مادة إنسانية يتعامل معها الإنسان في كل زمان و مكان.
- د- إيمان هؤلاء النقاد ضمن المنهج الإنساني بتفاعل الشكل و المضمون على نقيض الاتجاه الواقعي الاشتراكي الذي يركز على تبعية الشكل والمضمون.
- هـ- إيمان هؤلاء النقاد بضرورة الاختيار بين العامة و الفصحى، وترك المجال لمتطلبات الإبداع الأدبي، لأن الهدف الأساس هو التواصل مع الجماهير الواسعة من الشعوب.
- و- التركيز على ظاهرة الصدق الذي يرتبط بالوظيفة التي ينبغي أن يؤديها الإبداع الأدبي، و هو صدق معرفي و شعوري.

و لعلنا واجدون أن "شايف عكاشة" أجرأ النقاد الجزائريين في الحديث عن المنهج الإنساني بهذا التفصيل حيث أفرد له مبحثا خاصا في كتابه، بينما جل النقاد الذين سبق الحديث عنهم لا يتندون له إلا قليلا، و كأنهم لم يتأكدوا منه بصفته منهجا، و لا اتجاها.

و إذا جئنا إلى "الأعرج واسيني" في كتابه: "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر" و بالضبط في الفصل الرابع المعنون بـ "الاتجاه الواقعي الاشتراكي" نجد أنه يلمح دون أن يصرح كغيره من النقاد الجزائريين إلى البعد الإنساني للواقعية الاشتراكية مازًا بذكر أعلامها الذين نخلوا من الثقافة الإنسانية، فجاء نتائجهم انعكاسا لذلك البعد الإنساني "ولتخلق جيلا كاملا حمل مشعلها[...]" وهي تزدهر اليوم بأسماء خيرة من مختلف البلدان، الذين ورثوا زخم الثقافة الإنسانية بكل أبعادها.¹⁶

لا يمكن أن نستثني بلدان العالم الثالث في محاولاتها الجادة لتطوير الفنون و خصوصا الرواية التي يعتبرها "واسيني لعرج" أكثر الفنون تعبيرا عن هموم و تطلعات الإنسان بقوله: "هناك محاولات جادة في كافة البلدان الاشتراكية وبلدان العالم الثالث ذات التوجه الديمقراطي الوطني لتطوير الفنون الشعبية بصفة عامة، و الرواية على وجه الخصوص لأنها آلام الشعب المحسد جماليا"¹⁷.

و يقصر "واسيني الأعرج" هذا التوجه الإنساني على كتاب الرواية باللغة العربية، فيرى أن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية أكثر تقدمية، و قد استفاد كتابها من التجارب الإنسانية ممثلاً لذلك بـ: "محمد ديب"، "كاتب ياسين" وغيرهما من الذين أوصلوا الكتابة الروائية الجزائرية إلى مصاف الروايات العالمية*¹⁸.

و قد مثل "الأعرج واسيني" لهذا التوجه بإنجازات "رشيد بو جدرة" في "الحريق"، و "محمد ديب" في "الحريق"، "الدار الكبيرة"، "النول"، و "كاتب ياسين" في "نجمة"، و "الطاهر وطار" في "اللاز" والذي بدأ حياته قاصاً و انتهى روائياً لإيمانه بأن القصة لا تستطيع أن تغطي اللحظة بكل أبعادها و توتراتها، و أن الرواية هي الفن الذي يستطيع تغطية الفترة التاريخية بكل أبعادها، مركزاً على المضمون الإنساني الذي يجعل الفن طليعاً مستشرفاً المقبل*¹⁹، ليفصل بعد ذلك "لعرج واسيني" متكئاً على روايات يحد ذاتها مثل "اللاز" و "العشق و الموت في الزمن الحراشي"، "الزلزال"، "عرس بغل"، "الحوات و القصر" لـ"الطاهر وطار".

حيث يمكننا أن نجمل القول برأي "الأعرج واسيني" أن شخصيات "وطار" هي نماذج إنسانية تنطلق من تجارب جماهيرية رافضة الظلم و البؤس مستشرفة المستقبل.

و إذا كنا قد عوّنا على الاتجاه الإنساني عنده فما وجدناه البتة قد أشار إلى اتجاه أو مذهب أو توجه إنساني، بل يكتفي بالتجربة أو الظاهرة الإنسانية، و كأنني به لم يدر في خلده ما يمكن أن نطلق عليه الاتجاه أو المذهب الإنساني.

الهوامش:

1. ينظر: "أبو القاسم سعد الله"، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 107 و ما بعدها.
2. ينظر: ن، م، ص: 53 – 54.
3. ينظر: ن، م، ص: 55.
4. محمد بوشحيط، الكتابة لحظة وعي، مقالات نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 116.
5. ن، م، ص: 114.
6. محمد بوشحيط، الكتابة لحظة وعي، ص: 116.
7. عبد الله الركيبي، الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية و نقدية)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص: 170.
8. ن، م، ص: 172.
9. عبد الله الركيبي، الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية و نقدية)، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 177.
10. ينظر: مجاة الثقافة والثورة، ص: 54.
11. ينظر شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقد الواقعي العربي المعاصر، نظرية التصوير، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992، ص: 64.
12. ن، م، ص: 65.
13. ن، م، ص: 69.
14. شايف عكاشة، نظرية الأدب و التصوير، ص: 63.
15. شايف عكاشة، نظرية الأدب و التصوير، (ج2)، ص: 75.
16. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية، و الجمالية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 467.
17. ن، م، ص: 478.
18. ينظر ن، م، ص: 480.
19. ينظر ن، م، ص: 480 – 488.